بعد أن نجح في أداء دور الأم

مدرس لغة عربية ينقذ رضيعاً من أيدي خاطفيه

حسين محمد عجيل

من أجل المال خُطف الرضيع سامر ذو السنتين ، ومن أجل المال ايضا خُطف مدرس اللغة العربية م. خليل (٣٧ عاما). والقدر وحده هو الذي جمعهما معا في حجرة واحدة.

م. خليل أب لطفلين مازال أصغرهما يحبو، تولى ليوم كامل رعاية الرضيع سامر، لذلك لم يستطع أن يتجاهل بكاءه المفاجئ ويهرب من خاطفيه في صباح من صباحات آذار ٢٠٠٥ حين لاحت له الفرصة الذهبية بعد ثمانية أيام عجاف قضاها في مبنى مهجور مؤلف من ثلاث غرف صغيرة تحيط بباحة مكشوفة يقع في جنوبي بغداد، حيث السهل المنبسط الممتد بعيدا في الاتجاهات الاربعة لا شاخص فيه يخفي هاربا من عيون راصديه.

في جناح العناية المركزة في مستشفى بجانب الكرخ من بغداد يرقد م. خليل لمعالجة آثار سوء التغذية ومرارة تجربته مع خاطفيه الذين تسببوا بمنعه من تعاطي أدوية معالجة القرحة. بدا وجهه شاحبا وهو مستلقٍ على شقه الايمن ملتحفا بشرشف أزرق لا يخفي ضمور جسده... غرفته كانت مضاءة على نحو خافت كي لا تؤثر على عينين أدمنتا الظلام في حجرة مظلمة ألقي فيها طوال تسعة أيام بنهاراتها ولياليها الطويلة. بينما جلست زوجته س. عبد الستار(٣٥ عاما) على مقعد وثير في ركنها الايسر تراقب طفلها الذي يذرع ارض الغرفة حبواً.

وغير بعيد عن الجناح الذي يرقد فيه م. خليل كان الطفل الرضيع سامر ينام بدعة في أحضان والدته (ذات الخمسة والعشرين عاما) التي رفضت التصريح باسمها أو اسم زوجها. كانت عيناها الحمراوان محاطتين بهالتين سوداوين، حاملةً بزهو ولدها الملفوف بغطاء اصفر مقارب للون وجهها خارجة من المستشفى إلى بيتها، محاطةً بغابة من العيون المحبة اختلطت مشاعر الفرح فيها بالدموع والغضب.

وفي باب المستشفى توقف الجميع بانتظار والد سامر (٢٨ عاما) الذي تخلّف عنهم ليطمئن مرة أخرى على شريك ولده في تجربته الأولى بعيداً عن أمه وأبيه. يقول: "لم استطع أن أغمض عيني طوال الأيام الثلاثة التي بقي فيها سامر بعيداً عني، ولم تتوقف والدته عن البكاء حتى بعد أن تسلمناه من خلال مركز الشرطة الذي رابط فيه اخي ورابط في غيره بعض أقاربي للمتابعة. كان مبلغ الفدية الذي طالبنا به الخاطفون يعادل أكثر من مئة مليون دينار عراقي ولم يكن أمامي سوى أن أبيع بيتي على عجل أو أستدين المبلغ من أقاربي ومعارفي الذين لم يبخلوا بشيء. ولكن الحمد لله استعدنا ولدنا من دون أن نخسر مثل هذا المبلغ الكبير. كيف أشكر السيد م. خليل على ما فعله من أجل ولدي؟"

ليس ثمة إحصائية رسمية لعدد المختطفين في بلاد ما زالت أجهزة الشرطة في طور البناء والتشكل، غير أن انتشار قصص الاختطاف على نطاق واسع في أوساط المواطنين يؤكد كثرة هذه الحالات ذات الطابع الجنائي البحت فضلا عن حالات الخطف السياسي. لكن محمد الزبيدي (٤٥ عاما) الذي تعرض ثلاثة من أفراد عائلته للخطف يؤكد أن حالات الخطف تراجعت بعد إجراء الانتخابات معللا ذلك بقوله: "المواطنون أصبحوا أكثر ثقة بالشرطة العراقية وأخذوا يتعاونون معها بعد نجاحها في توفير الأمن لإجراء الانتخابات العامة في نهاية كانون الثاني الماضي". وقال ب. خالد (٣٨ عاما) المفوض في شرطة بغداد: "إن حاجزا نفسياً بين المواطن ورجل الأمن بدأ يتفتت شيئا فشيئا بعد أن تفنن النظام المتفسخ في تشييده على مدى عقود، وهذا الأمر ساعد على تقليل حالات الخطف بعد أن ارعبت العوائل في الشهور الماضية".

يقول م. خليل: "كانت الخيارات المتاحة كلها صعبة، فطريقة الهروب تحتم عليّ تسلّق جدار أملس يرتفع أكثر من مترين. وبرغم أنني وجدت طريقة مناسبة لشد سامر على ظهري لكنني لم أكن مطمئناً لها بما يكفي، ولم أجرؤ على أن أمنح نفسي حق اصطحابه معي خوف أن أعرّضه لأية مخاطر، وأقلها إطلاق النار علينا من قبل خاطفين قد يظهرون في أية لحظة".

مسح وجهه وعينيه ومسك يد ولده (ع) ذي الخمس سنوات الذي يغالب النعاس وهو جالس على السرير، بدا م. خليل كمن يحاول التأكد من أنه ليس في كابوس قبل أن يكمل: " بيد أن بكاء سامر فجأة جعلني اتردد في تنفيذ خطتي بالهرب وإبلاغ اقرب مركز شرطة لإنقاذه.."

م. خليل أكمل حكايته مع الخاطفين بالقول: " لم أكن أعلم أن اليومين الأخيرين اللذين قضيتهما مع سامر كان فيهما الخاطفون، الذين لم أر وجه أي منهم، هاربين من وجه العدالة بعد أن أمسكت الشرطة بأحدهم في جريمة سرقة سيارة واعترف على أفراد عصابته الأخرين كما اعلمتني الشرطة فيما بعد."

لم يخفِ م. خليل أن وجود سامر معه خفف عنه الكثير من الالآم يقول: "أشعرني وجوده بأمان من نوع خاص. لكنني شعرت بالرعب من إمكانية نفاد كمية الحليب التي وفرها الخاطفون" فقد علمته تجربته مع ولديه، التي استفاد منها كثيرا، أن يكون مستعداً لأسوأ الاحتمالات بشأن توفير مستلزماتهم الضرورية في أيام الحروب والأزمات.

وتقول زوجته أنها قامت بالاتصال بأخيها الثري المقيم في الإمارات لتأمين العشرين ألف دولار التي تمت المساومة مع الخاطفين عليها بعد أن كانوا يطالبون بخمسين ألف دولار فديةً بمساعدة من أخوة زوجها الثلاثة. ولكن الخاطفين توقفوا عن الاتصال بهم بعد اسبوع من الاتصالات المكثفة.

يقول م. خليل: " أدركت أن الخاطفين تعرضوا لمشكلة ما وأنهم غير موجودين على مقربة من المكان الذي احتجزنا فيه، فحسمت أمري على الفرار بعد إرضاع سامر وتنويمه، وبرغم حالتي السيئة استطعت عبور الحائط والركض إلى شارع رئيس وهناك حملني سائق شهم إلى مركز شرطة قريب وتكفل رجال الشرطة بالباقي"

وختم م. خليل قصته بالقول: " المال الذي من أجله فعل الخاطفون ما فعلوا أدى بهم إلى السجن، والشراكة التي جمعتني بالرضيع سامر ربطت عائلتينا برباط لن ينفصم".

تحت الضوء

مدير جديد.. ومهمات قديمة

حسام مصطفى

المنصب هو مسؤولية قبل أن يكون امتيازاً. هذه بديهية العمل الإداري الناجح فكيف إذا أضيفت الى العمل الإداري مهام تربوية وتعليمية ومكافحة فساد؟ من هذا المنطلق نقول للسيد مدير تربية (...) الله يساعدك. والسبب على ما نعتقد لهذه البداية المتشائمة ليس غائباً عنه واعتقد بأنه قد شم بعض الروائح في هذه المديرية. وهو غير بعيد عن أجوائها خصوصاً عندما يدخل من الباب الرئيس ليجد أمامه لافتة معلقة على لوحة الإعلانات تطلب من المواطن أن يخبر المسؤولين عن أية حالة رشوة بشأن التعيين والنقل والتنسيب. والإعلان بهذه الصورة. منطقياً يقود إلى استنتاج يقول: إن مثل هذه الحالات أصبحت خارج السيطرة كما يقال. حتى بات الاستنجاد بالمواطن آخر الدواء فإذا كان هذا هو حال مفصل واحد في هذه المديرية فما حال بقية المفاصل التي نعتقد أن مستنقع الفساد الذي تغرق فيه معظم دوائرنا ومؤسساتنا الحكومية قد زحف إليها وأغرق من أغرق وبلل من بلل!

مهمة صعبة وشائكة بلا شك؛ ولكنها ممكنة. ممكنة بكل القياسات، إذا قام الأداء الجديد لهذه المسؤولية على أسس صحيحة ومعايير وطنية تضع نصب عينيها هدفاً وحيداً هو خدمة العملية التربوية والتعليمية بما يسهم في خلق جيل جديد غير ملوث بأمراض الماضي القريب.

من المؤكد أن المدير السابق لم يستطع أن يفعل شيئاً مؤثراً لتنظيف البيت، ربما لأن المافيات القابعة في زوايا العتمة أقوى بكثير مما يستطيع ان يفعله في أوانه، لم يستطع أن يراها بصورتها الحقيقية، أو إن أدواته كانت متحالفة مع هذه المافيات، فحجبت عنه ضياء الحقيقة وبذلك تركها كما قدم إليها.

لن نتجنى على أحد، ولا نية لنا في فعل ذلك. لكننا نقوم بما يمليه علينا واجبنا في محاربة كل إشكال وتفرعات الفساد ،محاولين المساعدة في هذا قدر استطاعتنا، والإشارة إلى أولئك الذين يبدلون جلودهم كما تبدلها الأفاعي!! بل إنهم يبدلون جلودهم كل لحظة، حسب مقتضيات (المصلحة العامة) ليصعب كشفهم وإزاحتهم.

سيجد السيد المدير الجديد الكثير من الحقائق أمامه فيما لو اعتمد على أناس مخلصين غير ملوثين بأدران السلطة المبادة وشجعان في الوقت نفسه لا يهابون في الحق لومة لائم كما يقول المثل العربي، وهمهم الوحيد هو أداء وطني نزيه وبناء مؤسسة بعيداً عن المحسوبيات والمنسوبيات والتوافق الآيديولوجي أو السياسي، بعيداً عن دوائر ابن العم وابن الأخت وابن العشيرة أو المذهب.

سلوكيات قديمة، ينبغي نبذها ومحاربتها بعدالة وحسم، حتى يعرف كل موظف مهما كانت درجة مسؤوليته أن عقابه سيكون صارماً وعادلاً أيضاً لو تلاعب باموال الشعب أو ابتز المواطن بسبب حاجته إليه!!

بكل وضوح نقول بداية صحيحة ومعافاة ستكون نتائجها صحيحة ومعافاة أيضاً وبداية صحيحة من دون متابعة ستعيدنا إلى نقطة الصفر وسينطبق علينا المثل الشعبي العراقي (تيتي تيتي.. مثل ما رحتي جيتي)..

ما لا تراه العين فوق جبال عمان السبعة!

رحلة الشتاء والصيف لنمل العراق في الاردن...!!

عمان: خاص بالمدى

لكل واحدة منهن قلقها الخاص ، تدخل فيه كما تدخل نملة بيتها ، تنتظر دورة الفصول ، التي قد تتأخر طويلا قبل أن تصل ، خصوصا تلك الفصول التي نريدها. يقمن في السبات بعيدا عن الوطن الذي نسي أبناءه كثيرا ، الوطن الذي أدمن في عامين تغيّر الحكومات والفصول ، بعد أن كانت حكومة واحدة وفصلا واحدا تتساقط أيامه طوال العام.

ولأن شتاء عمان كافر البرد ، ولأنه لا يؤمن بالفقراء ، تسرّبنا كما تتسرّب مياه الأمطار الى البيوت المنخفضة ، نبحث عنهن ، نسائنا ، أخواتنا ، بناتنا. نطرق على خجل أبوابهن ، حالمين بالعدوى أن تنقل إحساسنا بالخجل الى حكومتنا في العراق!!

فقراء معوزون لكنهم أكثر كرما من الحكومات التي تتغير، يعيشون في الزوايا البعيدة عن عيون شرطة الوافدين التي تهددهم بالترحيل والتسفير، لأنهم يقيمون بطرق غير رسمية، ولأن حكومة الأردن معنية بشعبها أولا - وهذا من حقها. ولان الموضوع حساس لذا اثرنا ان نحتفظ باسماء النساء اللواتي عملنا التحقيق حولهن...

حكاية أم عراقية

على جبل (الجوفة) نزلنا إليها، في بيت داخل بيت، كان دليلنا اليها جيران لها يعرفون بؤسها، أم عراقية في الثالثة والخمسين من العمر، مات زوجها في الحرب العراقية - الإيرانية، وقتل ابنها الوحيد في العراق بعد سقوط التمثال، قتله الرصاص الطائش، فبقيت هي وابنتها ذات السبعة عشر خريفا، وقبل أن تتكلم عن أي شيء أصرت (أم.م) إلا أن تقوم بواجب الضيافة، كم أنت كريم يا بلدي المتناثر على الأرض؟!

تعلّق صور عائلتها التي انقرضت، زوجها، إبنها، قلنا لها : - تكلّمي يا(أم.م)....

قالت : - ماذا أقول، لقد ذهب كل شيء، لا بيت لنا في العراق، ومات ربّ البيت ومات ابنه، لم يبق منا إلا أنا وابنتي.

- ألا تفكري بالرجوع الى العراق؟

- وماذا نفعل إذا عدنا؟ ولمن نذهب؟ من يتولى أمرنا؟ من يحمي ابنتي؟

- وهل أنت في أمان هنا؟ ألا تختبئين من عيون شرطة الوافدين؟

- القلق واحد هنا وهناك، غير أنك هنا لا تتعرض للقتل العشوائي، ألم يعد ابني الى بغداد؟ ماذا حصل من عودته؟ ليته لم يعد إلى بغداد، لكان معنا الآن، فرّ من الغربة الى الموت، قال ان الأمن والحرية أصبحت هناك في بغداد، لكنه عاد ومات، ولا أريد لابنتي ان تعود فتموت.

- كيف تعيشين وحيدة مع ابنتك في الغربة؟

- أعمل خادمة في بيوت الناس، أكنس واطبخ واغسل (هدوم).

- وهل تحصلين على ما يكفي لإيجار السكن والمأكل والملبس؟

- كان ماجد يساعدني، ولكنه كسر ظهري عندما عاد الى بغداد، وأنا أعاني الان آلاماً في الساقين، ويذهب أكثر ما أحصل عليه علاجا، أنا لست قلقة على نفسي ولكن على هذه البنت، أخشى ان أموت فتظل وحيدة هنا، أنا قليلة الحركة والناس يتعاطفون معي، أتمنى أن أجد من يساعدني في إعالة ابنتي، ويا ريت لو كانت جهات خيرية.

خرجنا من بيت (أم.م) ونحن نتساءل هل تعلم الجهات المتصارعة على الكراسي والعروش في الداخل شيئاعن أبناء شعبها الممزق، أين وزارة الهجرة والمهجرين؟ أين وزارة حقوق الإنسان؟ أين دعاة حركات المجتمع المدني؟ الى متى نعلّق عجزنا على شماعة الآخرين؟

صراع مع شرطة الوافدين

وعلى جبل آخر من جبال عمان، وفي زاوية ضيقة وبعيدة عن عيون المطاردات اليومية، طرقنا باب(ام.د)، امرأة عراقية في الخمسين من عمرها، وحيدة في بيت تجاورها نساء عراقيات، أغلبهن يعانين مثلها، (ف)،(ل) وابنتها التي حرمت من إكمال الدراسة، وأخريات تجمعن لحظة زيارتنا لها، قلنا لهن : وماذا بعد؟

قالت (أم. د): انها ليست حياة، ينبغي ان يكون هناك حل لهذه المهانة، ألم يسقط صدام حسين؟ ألم يتغير النظام؟ لماذا تبقى حياتنا على ما هي عليه إذن؟ لماذا أقيم هنا وينظر لي إبن هذا البلد على إنني عراقية (شرموطة)؟ لقد ضربت رجلا فلسطينيا قبل فترة قريبة لأنه ذكر هذه الكلمة، قال : سأجلب لك شرطة الوافدين؟ قلت اللعنة عليك وعلى شرطة الوافدين تهددني بإرجاعي الى العراق الذي هو أشرف منكم جميعا، متى ينتهي هذا القلق لا نحن نستطيع إكمال الهجرة الى أراض أخرى ولا نحن نمتلك ما يوفر لنا الحياة الحرة الكريمة في العراق؟

أما(د..). وكانت جالسة الى جوار(أم.د)، وهي جارتها، تعيش مع أبيها الذي أصيب بنزف في الدماغ، لأن أحدهم في العراق ضربه بأخمص المسدس وسرق ما لديه. تقول (د) :- لقد خرجنا من العراق لا كرها له، أبدا لا يوجد مكان يمكن ان يكون بديلا عنه، لكننا فقدنا الأمان، ونتمنى ان يهدأ الوضع وأن ينتبه الناس للخراب الذي حصل ويحصل يوميا هناك. قلنا لهن :- وماذا تعملن هنا لكي تتجاوزن تكاليف الحياة الباهظة؟

قالت (د): لقد جربت العمل في مكاتب لكنهم ينظرون لنا بطريقة كما لو انهم يمتلكوننا، فتركت العمل، والآن أعمل مع (ام.د)، ومع (ل) و(ف) في حفلات الأعراس الشرعية، وهذا العمل يتحرك مع نهاية الربيع وينتهي مع بداية الخريف، يعني بالضبط نعمل في الصيف ونسبت في الشتاء، كما لو أننا نمر بدورة النمل في الطبيعة.

قالت (ام.د) :- في الحفلات الشرعية يكون هناك فصل بين الرجال والنساء، يعني تكون هناك صالة خاصة للنساء، ونحن نقدم الحلوى وما شابه ذلك للحاضرات.

- هل تحصلن على أجور جيدة بحيث تكفي لسبات الشتاء؟

قالت (ف) وهي امرأة تجاوزت الخمسين تعيش مع أبيها بعد أن هاجرت نصف العائلة الى أمريكا :- الأجور جيدة وأحيانا نحصل على (بخاشيش) من أمهات العرسان ومن أقربائهم أيضا. ولكنها في كل الأحوال لا تكفي لحياة الشتاء، لذا نطلب من أهالينا الذين عبروا الى قارات بعيدة ان يعينونا، ولكنهم أيضا يعيشون في حياة باهظة التكاليف، ويعانون صعوبة في التوفير.

تمزقت العائلة على الأرض

ثم خرجنا نقصد جبلا آخر، وحياة سوريالية أخرى، أقصد حياة واقعية أخرى، وما ألصق السوريالية بالواقعية في لحظتنا الراهنة، وعلى جبل الحسين طرقنا الباب على فتاة تعيش مع أخيها، هاجر أبوها وأمها الى السويد، يعاني الأب جلطتين في القلب، بينما تعاني الأم ضيقاً واختناقاً في التنفس، رفضت الأمم المتحدة لم شمل العائلة بسبب ان الأولاد تجاوزوا سن الثامنة عشرة، وفوق كل هذا لها أخ آخر (في الثانية والعشرين من العمر) نجا من السفينة الغارقة التي كانت متجهة الى استراليا، فتم حجزه في جزيرة من جزر المحيط هناك منذ ثلاث سنوات، نسينا ان نكتب انها هي نفسها مصابة بالتهاب في اللوزتين وهو ناتج عن ضغط نفسي.

رفضت ان نذكر اسمها، قلنا لماذا؟

- لا أحد يقرأ، والحكومات غير معنية بشعوبها.

- هل ينبغي ان نيأس؟

- لا نيأس ولكن تأخر كل شيء، تمزقت العائلة على الأرض، هل نلتقي مرة أخرى، اشك في ذلك (تقولها وهي تختنق بلعنة مكبوتة لجهات كثيرة).

- كيف تعيشين وحيدة مع أخيك الأصغر؟

- أنا عاملة خدمية في الكنيسة، فلا أحد يسمح لنا بالعمل هنا، وإذا عملنا لا يعطونا من الأجر سوى العافية.

- كيف ذلك؟

- يقول لك صاحب العمل في نهاية الأسبوع أو في نهاية الشهر (يعطيك العافية)!.

- ألا تستطيعين مقاضاته؟

- نحن بلا تصاريح عمل، مؤامرة كبيرة استمرت من زمن صدام الى الآن، ما الذي تغير؟ - هل تعتقدين انها مؤامرة؟

- إننا ورقة رابحة يتاجر بنا الماضي والحاضر والمستقبل.

- لهذا لجأت الى الكنيسة؟

- الكنيسة تدفع لي ايجار السكن، ويعمل أخي الأصغر معي في الكنيسة لنوفر الغذاء. أبي وأمي يموتان في أوربا، وأخي يذوي في جزيرة من جزر استراليا، ونحن أنا وأخي الأصغر نعيش بلا معين، هل نحن خطأ على الأرض؟

خرجنا مرة أخرى لا الى أي مكان، خرجنا نحمل خجلنا من عجزنا عن تقديم المساعدة لأناس هم بأمس الحاجة اليها، تهديد متواصل بالترحيل، الكبار عاجزون عن العمل بسبب كل هذا، والأطفال يحرمون من الدخول الى المدارس لأنهم بلا إقامات رسمية، لقد كان هناك إحساس بالتآمر من أطراف كثيرة ليظل هذا العراقي أسير مكانه الضيّق، وخطوته المكبوتة.هذه الحالات نماذج لمئات الحالات للعراقيات والعراقيين في الاردن...

وماذا بعد؟

ليس أمامنا إلا ان نرفع هذا التحقيق الى وزارة الهجرة والمهجرين، ووزارة حقوق الإنسان، وقبل كل ذلك نرفع هذا التحقيق الى حركات المجتمع المدني والمجالس العمالية ونقاباتها، ينبغي ان تكون هناك خطوة جادة في سبيل حماية الحق العراقي في كل مكان سواء في داخل العراق أو خارجه، وان يكون هناك ضغط مستمر من أجل إزاحة المعاهدات السرية التي كانت وما زالت عقبة أمام حرية الإنسان العراقي.